

غريب على الخليج .. يعني للمطر

بقلم صبري حافظ

هذا الشاعر العظيم من رؤى وفصايا . ولا على تناول كل ما نشره الدراسة الموضوعية القيمة لهذه الاعمال من نقاط . ولكنها ستحاول التعرف على حياة هذا الشاعر ، وعلى التناقضات الذاتية والاجتماعية التي وقفت في الخلفية من اعماله وانجازاته في شتى الميادين الابداعية التي مارس الابداع فيها . وستحاول الحديث عن الدور الذي اضطلع به السياب في حياتنا الادبية المعاصرة ، عبر مرورها التنوغي السريع على الكنوز التي اثري بها مكتبة الشعر العربي الحديث . والتي وقفت في سموخ لترفع منارات الهداية لكل من يحاول الوصول الى مرافئ الشعر .

واي حديث عن بدر شاكر السياب لا بد وان يتمركز حول ذلك العناق الحاد بين احساسه الدامي بالافتراق والوحدة ، وتوفه العميق الى سبر جوهر مملكة الحاضر ، والوصول توا الى منبع الشعر فيها . فحول هذا اللقاء دارت حياة السياب ، وعلى شقيه توزعت كل اشعاره . على مد المراحل المختلفة التي مرت بها رؤى الشاعر ، وعلى طول الدواوين الستة التي جمعت فيها اشعاره . وقبل ان نتحدث عن هذا اللقاء المحوري الذي يعثر العذاب في حياة شاعرنا . سنحاول ان نتعرف على الخطوط العريضة لحياته ، وعلى الالوان العامة للوحة الحضارية التي شب وسطها .

ففي قرية جيكون - احدى قرى لواء البصرة - التي خلدها الشاعر عندما حفر اسمها - بعدما نشره عبر كل فصائده - في اعماق القراء وفي وجداناتهم . ووسط الظلام الكثيف الباسط جناحيه فوق عراق الاحتلال الجائبة تحت اقدام الانجليز . . . وثناء دوامات الفليان السعبي العراقي التي انتهت بتوقيع معاهدة الاستقلال عام ١٩٣٠ . . وعلى وجه التحديد في عام ١٩٢٥ ولد بدر شاكر السياب ، لابوين لا نعرف ماهيتهما الطبقية ، ولكن الشيء الاكيد الذي نعرفه عنهما هو انهما كانا فقيرين . وعاش بدر طفولة حافلة بالبراءة في جيكون . . . حيث يعانق النخيل في تلك القرية التي تعد واحدة من اجمل بقاع جنوب العراق . . الشط والرمال ، ويشرب في اسميات الشتاء المطر . وفي هذه الطفولة . . السعادة النسبية الوحيدة في حياة بدر . . شرب شاعرنا الحياة في القرية بكل جزئياتها . ونرسيبت كل هذه الجزئيات ، عبر حدقته المتبهجتين بجمال الطبيعة ، في اعماقه . . وظلت هذه الصورة الطفلية المصعوفة بجمال الطبيعة المدهشة يحزنها الجليل ، هي صورة الطبيعة في اغلب فصائد السياب ، حتى في اكثرها حزنا واسى . . جميلة ، غافية ، مشرقة ومعربة بالبهجة ومنتشحة بفلالات من الحزن العريق الجليل في آن . ترد القارئ الى هذا العالم السحري المليء بالاسرار والعامر بالرؤى والاساطير . . عالم الطبيعة المشرقة الغافية والبراءة الطفولية الشديدة الساطعة والمتناهية التعقيد معا .

ولم تستمر هذه السعادة لاعد من سنوات الطفولة . . فقد مزق صبا شاعرنا التشوف الى حياة اوسع ، والتعثر المختنق في شباك الابدي المجذوة الاصابع ، والتي ابدا لا تطول المتى . ولم تكن الايدي

اعلمنا ان تكون المرثي اشعارا ، ينورها التضرع بكاء فوق فيبر الففيد الذي لم يجف نرايه ، ولم ينصلب الاسمنت على فوهه بعد . . يعددون فيها المناقب ويبعمرون الترحمات . غير اني هنا ، وقيل ان لجف الدموع ، او ينحسر التوهج العاطفي ، او يطلق الزمن مسافة كافية لواد التحيز الانفعالي (X) لا استطيع ان اكتب عنه الان سوى مرنية . . اما الدراسة الموضوعية ، التي نعدد فيها ما له ونحاسبه على ما عليه ، فبعد المرتبة موعدها ومكانها .

وهو يحث الخطى نحو عامه الاربعين غاب . . تذررت بالصمت خطوانه . . وفي وهاد الموت ، الذي طالما تذكره راجفا مرعبا وهو في منفاه المرضي الاخير ، اختفى . . . بعدما استطاع الشلل الكئيب الرابع الزاحف من القدمين ، والذي نشر الحزن والخوف والاسى في كل اعماله الاخيرة ، مواصلة الرحلة نحو الندى . . وامتصاص اخر نفثات الحياة من اعماق اعظم شاعر عربي معاصر . . وسرى النبا الحزين في كل الاروقة . . وبارجاء عالنا طاف ، وعلى كل الجياه ترك ميسمه ، وفي القلوب خلف الاسى . . مات بدر شاكر السياب ، الشعر والقلق والعذاب . . مات الغريب الواف على الخليج ينثر اناشيده للمطر وللنخيل ولارض عرافه الجديدة . مات الانسان ولكن ظل الشاعر يطوف بكل البلدان ، ليخاطب اعق ما في اعماق الانسان ، وليحفر لنفسه مكانا في كل مكان .

ومن خلال الاحساس الدامي بفجيعة الفقدان ، تناول القلم لاكتب هذه الكلمات عن بدر شاكر السياب . . الشاعر والانسان . الهرفل الذي حاول طيلة حياته التي مزقتها نصال الغربة والعذاب ، ان يفك برومثيوس الموثق . وان يمسح بكفه الرحيمة دموع عشثار ، او يبكي بين يديها الحبيب الذي وهب غياهه الاجداب والجفاف والخراب . . عن مغني تموز وعاشق ادونيس احدث ، عن رفيق اوديسيوس في بحثه وعذابه ، ورفين برومثيوس في تشوفه الظامء الى الحقيقة ومعاناهه من اجلها . عن شقيق غينميديا في الاختطاف المفاجيء والمعاناة الדהشة لعالم يسفر كل لحظة عن وجه غريب وجديد . . عن بدر شاكر السياب اسوق الحديث . . ومعذرة ان كانت مرثيتي عن اعظم شعراء العربية في هذا العصر نثرا . فاننا لا اعرف قول الشعر . حتى لو كنت بشاعر . ما كان بمقدوري ان اكتب عن بدر شعرا . فمرثي اعظم شعراء العربية في هذا العصر ، مهما كتبت شعرا ، لا بد وان تستحيل على اعتاب عالمه الى نشر . . ونشر فحسب .

ولن تحاول مرثيتي للسياب ان تنشر على قبره الترحمات . ولن تدعي لنفسها في الوقت ذاته القدرة على استنفاد كل ما تطرحه اعمال

(X) كتبت هذه الكلمات عقب وفاة الحبيب بايام قلائل . . وحالت ظروف دون نشرها في حينها ، حينما اعترمت نشرها في ذكرى الاولى ، لم ارد ان اغير شيئا فيها . لانها تسجبل لنظارة صدمة فقدان هذا الظاهر العظيم وحدتها . . وتكثيف لانفعالي بها وقتها . (ص)

مجذوة الاصابع من الفقر الجديد فقط ، ولكن ايضا من فقدان الوسامة .. فما كان شاعرنا وسيما ، وما كان باستطاعته في صباه ان يهتم لفقدان الوسامة ذلك .. ولكن حاصرته هموم هذا الفقدان في مطع الشباب .. استمتعتها الى الاعماق منه خفقات القلب المشوف الى المذمرة وطعم الحب . وخاصة في تلك الفترة التي كان فيها بدر طالبا في الجامعة ... كان هذا في مطالع الاربينات من هذا القرن او في منتصفها . وكانت اروقفة الجامعة تشهد الاختلاط منذ فترة جد قصيرة . وكان يرين على اروقفتها وباحاتها ذلك التوتر التوهج الذي يصاحب بدايات الاختلاط في مجتمع رزح طويلا تحت نير الركود والجمود والعلاقات المريضة .. وكانت اسرة السياب الفقيرة قد عاشت واحدة من بطولات عمرنا الصغيرة حتى تتيح لابنها فرصة الوفوف على قدمين في خضم الجامعة ، حيث يتعمق فقر الفقراء وبرز حدنه ... وكان نشوف شاعرنا بعدما نفتحت الموهبة الشعرية في اعماقه ، الى عالم ارحب مدى قد بلغ ذروته ، وبلغت حساسيته درجة عالية من الرفاهة وحدة النأر ... ومن جماع كل هذه الاشياء انوت اغاريد السياب اليانسة للحب . والتي اكلت بها صفحات مخطوطته التي لم تنشر (ديوان شعر كله غزل) وكله تقريبا من الشعر التقليدي ، واول دواوينه المنشورة (ازهار ذابلة) . وحومت اغلب هذه القصائد حول المنطق الرومانسي لاغاريد الحب .. اذ كان يكفي ان تلمس حسناء كنف شاعرنا في احدى باحات (كلية التربية) لتسأله في حياء عن موضوع المحاضرة التالية . او تخبره بانها قرأت اخر رسائله او اعجبت بها . او بصوب له نظرة ناعسة في احد دهاليز ميناها . او تترتت الى جواره ونحدثه قليلا في احد مماشيتها الرفيعة الطولة . حتى تتحول داخل القصيدة الى ... شقيقة روحه .. ومعبودته .. وفينوس المنعمة على البشر بنظراتها الحنونة .

لهذا سقط بدر في الحب سريعا . ولاحق الحسناء التي اعجبت في البداية بقصائده ، بعشرات القصائد المتناهية العنوبة والرفة ... وكما سقط في الحب سريعا ، افاق سريعا على الفاجسة .. بعدما تزوجت شقيقة روحه (؟) من احد سراة العراق اثر اول تلويحة بالثراء . ونبهته الفاجسة الى اشياء عديدة ... الى ضرورة الايمن في الابتعاد عن الشاطيء ما دام لا يملك سوى مجدافين من قش. والى ان فوادم الاحلام المنكسرة لن بقوده ابدا الى العالم الارحب الذي طالما تاق اليه .. والى ان يديه المجذوة الاصابع بالفقر وبفقدان الوسامة لا بد وان تمثرا على طريقة جديدة نمكنها من القبض على الامنيات الهاربة من بين الاصابع ... والى ضرورة ان تنقلب عيناه الحالمان المشوفتان الى المجهول .. لتجوسا بداخله وترودا اطراف العالم من حوله بنظرة جديدة وفهم جديد ... وقصة البحث عن هذه النظرة الجديدة وهذا الفهم الجديد ، هي قصة السياب مسع الشعر الذي رغب دائما ومخلصا في الوصول الى جوهره ، والى نبعه الرقراق المصفى .

وقبل ان نراقف خطواته في رحلته الطويلة مع الشعر والكلمات .. سنتملس بسرعة ببقية ابعاد المرحلة الجامعية في حياة السياب، فيها كانت بذور هذه الرحلة والروافد التي انوى منها بالزاد لهذه الرحلة الطويلة المريرة .. فقد التحق السياب بدار المعلمين العليا عام 1944 - 1945 وهو نفس العام الذي تخرجت فيه منها الشاعرة العراقية الكبيرة نازك الملائكة .. فلحق بنازك وهي في عامها الاخير بهذه الدار ثم لحق به البياتي في العام التالي ورافقه رحلته فيها ، مخففا عليه بعض وطء هذه الرحلة وبعض جفافها . فكان عبد الوهاب يأخذ رأي بدر في اشعاره وكان بدر يقرأ على عبد الوهاب قصائده ... بل لقد ساعد عبد الوهاب بدرًا على تجاوز اسوار هذه المرحلة الفزلية المفرقة في الرومانسية دون ان يدري .. وذلك عبر ثرائته السياسية المتعددة وعبر اهتماماته الدائمة بالقضية الوطنية .. وعموما نقول ان صداقة السياب والبياتي قد اثرت على شعر كل منهما وسارعت في انصاج محاولتهما الشعرية ... وقد رافقت سنوات الدراسة هذه

خروج العراق من انخراطها الجائر في الحرب العالمية الثانية التي شملتها كثير من اثارها .. بكل ما صاحب هذه السنوات من اضطراب ونوتر .. بلغ ذروته خلال انتفاضة عام 1948 واضراباتها الوطنية ضد معاهدة بورنسموت المفقودة بين العراق وبريطانيا والتي اشتهرت وقتها باسم معاهدة بيفن - جبر حيث نمت ابان وزارة صالح جبر العميلة ... وصاحبت هذه الفترة ايضا بداية نضج وتبلور الاتجاهات اليسارية على الصعيدين الفكري والسياسي .. وبدأت في خوض معاركها المخلفة في مجالات الثقافة والسياسة والفكر والفن . كما رافقت هذه الفترة - والاعوام التالية لها - بداية تنامي حركة التحرر الوطني على الصعيد العالمي ، وانتصار الثورة الاشتراكية على مبعدة بلدين من العراق .. في الصين ، وخروج الاتحاد السوفياتي من عزلة البناء الطويلة .. كما شهدت هذه السنوات على الصعيد الفني بداية حركات الفن وثورانه للتملص من فيود القديم والخروج من افييته العتمة والمستهلكة سواء على المستويين العربي او العالمي .

كل هذه العوامل المشابكة والمتفرقة في آن ، ساهمت في صوغ ابعاد المناخ الحضاري الذي سشكل فيه السياب ، والذي خرج عبره من سرايب المرحلة الفزلية المفرطة الرومانسية ... وساهمت فيه ايضا طبيعة المناهج الدراسية التي كان السياب يلغاها في دار المعلمين العليا - كلية التربية - والتي كانت تركز بصفة اساسية على القيم التراثية سواء في الادبين العربي او الاجنبي .. وكانت مناهج هذه الدراسة مترعة بالمحفوظات الشعرية التي شملت المتنبي وابا العلاء والبحرزي وابن الرومي وابا تمام وامرأ القيس وغيرهم من كبار شعراء العربية وقطاحها ، الى جانب شيللي وبيرون وكينس وكولريديج ووردزورت و اغلب الرومانسيين العظام ، مع كبار الرمزيين من امثال بودلير وفيرلين ورامبو وفاليري وريلكه وغيرهم .. وعبر تطوافه الحساس الطويل في عوالم هؤلاء الشعراء العظام بدأت اولى خطوات رحلة السياب الطويلة المريرة على درب الشعر والكلمات .



فبعد ان ذرت الفاجعة انقاص المرحلة الرومانسية التي مزج فيها السياب ما شربه من غنائية علي محمود طه وابراهيم ناجي ومعروف الرصافي ، بجزالة الشعر العربي القديم ، بدأ بحثه العظيم عن رؤيا .. عن مفهوم متكامل وجديد للعالم والانسان .. غير ذلك الذي تتحول فيه لاسمة الكتف الى شقيقة الروح ثم معذبتها .. مفهوم يرتاح اليه ويحقق عبره نشوفه الى العالم الارحب الذي نذوب على شطائه كل عذابات اغترابه وحنينه الى التآلف مع جزئيات عالم مبرر ومريح ... ولان السياب كان مخلصا في بحثه العظيم عن رؤيا .. ورؤية شعرية على وجه التحديد .. شمل نطاق بحثه الشكل كما شمل المضمون . فكان السياب من اوائل المجددين في الشعر الحديث . بل هو اول الشعراء العرفيين في هذا المضمون . اذ بدأ مفهوم القصيدة الجديدة يتحدد على ايدي السياب ، وعبر انتاجه الشعري وصل هذا المفهوم الى ارق وارقي اشكاله وانراها .. وقد رافقه هذا النضوج الفني اهتمام الشاعر الى الرؤيا التي كان يبحث عنها ، والتي علق على مشجبحها كل همومه الذاتية والاجتماعية . فلما بدأت اولى مراحل شاعرنا الالتزامية ، والتي رافقتها ارتياح الشاعر الى هذا المشجبح الذي علق عليه كل همومه .. بدأ الناقد الفني في الظهور في اعمال السياب والتمتع فيها . فقد وهبه الارتياح الفكري الى الرؤيا التي وفق اليها ، قدرا كافيا من الانصراف الى التجويد الفني لقصائدها والاهتمام بيناتها الشعري والشعوري . ساعده في ذلك رحابة هذه الرؤيا واسع افقها وعمق تفهمها لكافة ابعاد الحياة وتقديدها للجوابات المقولة والمنطقية على سثنى تساؤلات الشاعر وعلى جل تطلعاته . فوهبته راحة الرؤيا تلك طاقة هائلة للانطلاق نحو منابع الشعر ومحاولة الفوص الى ما في اعماق اغواره من رؤى واساطير ... كما ادى ولع الشاعر بهذا الاهتمام بجوهر الشعر الى الانفتاح على عطاء الشعر العالمي يشرب منه الى حد الاترواء .. وكان السياب اذا استثنينا لويس عوض اذا ما

اعبرناه شعرا - اول الشعراء المحيدين اهتماما بالشعر العالمي واعمقهم احكاما به واستفادة منه ، واسبقهم مبادرة الى التاكيد على اهميته بالنسبة لشعر عربي يريد ان ينهض من سبات طويل وعميق .

ولم يهف اهتمام السياب بالشعر العالمي ، وبعينه من ضرورة استيعابه والاستفادة برقى ما وصل اليه من تجارب عبرية ومجتمعية، عند حدود القراءة والفهم . بل جاوزه الى افاق الاستيعاب والمثل والترجمة . فكانت مجموعة القصائد المترجمة التي صدرت لبدر في بغداد عام ١٩٥٤ تحت عنوان (قصائد مختارة) من اول المختارات الشعرية المرجمه ... بل لقد سمع فراء العربية فيها لأول مرة اصوات عند كبير من شعرائها العسرين ... وهم : ت.س. اليوت ، مونتال ، غارسيا لوركا ، ناظم حكمت ، رايندرازات طاغور ، ادب سميول ، بابلو نيرودا، سينيغ سبندر ، سكليانوس ، كامير ، مزين ، لويس ، ريلكه ، عزرا باوند ، جيوفانييني ، والردي لاميير ، جاك بريفيير ، كرميل ، انرس ريمو وفيلستر ... ومن الواضح انه ليس نمة رابطة واحدة يمكنها ان تجمع كل هؤلاء الشعراء على اختلاف مشاربهم ، وبرغم بيان تصوراتهم للعالم وفههم له ، بين دفتي كتاب واحد ، سوى احتفانهم جميعا بجوهر الشعر ، وبراعمهم في الوصول الى مرافئه .

وقد استنطق امام السياب الشديد بالشعر العالمي ، ان يعكس على انتاجه الشعري ، وان يترك اصابعه نصحا ومقدرة على قصائده ، مؤكدا ضرورة ان يكون الشاعر العظيم ، مثقفا عظيما .. كما استطاع السياب بثقافته العظيمة في الشعر العالمي والتي لم نصره ابدا عن الاهتمام بخاثر الشعر العربي القديم ونفائسه ، فما اعلى صوت الموروث الشعري في قصائده ، ان يشري الشعر العربي وان يدخل فيه عشرات الابنية والتصورات ، ويوصل فيه اكثر القيم اقترابا من جوهر الشعر ، مع محافظته خلال كل هذا على ان يكون اكثر الشعراء اقترابا من روح الشعر العربي القديم ، واتقهم صلة به واعمقهم اخلاصا له ، دون ان يكون ذلك باني حال على حساب النصافه بوجدان اللحظة التاريخية والحضارية التي صدر عنها وعبر خلالها عن احلام شعبه وامانيه . وقد تجلت رغبة السياب في الاخلاص للشعر العربي ، والتي عانقت نوفه الى تجديده وابقاظه من سباته القديم الطويل ، في المحافظة على روح الشعر العربي القديم والاقترب الدائم من جزائته والتحويم بالقرب من رصانه التقليدية ، وفي احيائه للكثير من الكلمات العربية الاصلية ، وحرصه على بنية لغته من الالفاظ الهجينة . كما تاكدت رغبته في بت دماء جديدة داخل عروق القصيدة العربية ، في البناء الملحمي للقصيدة والذي قدم السياب انفى اشكاله وارادها في الشعر العربي الحديث عبر (المومس العمياء) و (حفر القبور) و (فافله الضياع) .. وفي الاقترب بالقصيدة من جوهر السراجيديا دون افادها شفافية الشعر وعذوبته كما في (نبوءة عام ١٩٥٦) و (سفر ايوب) و (من ليالي السهاد) و (منزل الاثنان في جيكور) و (انشودة المطر) .. وفي البناء الاسطوري المحكم للقصائد والذي لا يقوم فيسه الاسطورة بدور اداة التشبيه الساذجة ، بل نستحيل الى الخيوط الناصجة لسداه المهج التعبيري ولحمته ، والذي يكتب الشاعر خلاله كل الجزئيات الرامزة الى ابعاد المأساة الانسانية التي يعاصرها انسان عراه الجديدة ، كما في (مدينة بلا مطر) و (مربية الالهة) و (حدائق وفيقة) ... وفي استخدامه لاكثر من تفعيله عروضية في القصيدة الواحدة ، وانعاله من بحر الى اخر بحسب الانتقال بين جزئيات التجربة الشعرية والانسانية ... وفي خروجه بالشعر الحديث من اسار البحور العروضية التي كاد يصاب بالاغماء من كثرة دورانه في اقبسيتها المستهلكة الى حد الابتدال ... وفي اهتمامه المبكر - على الشعر العربي - بان يكون جرس الالفاظ صدى لمعناها ، والذي يعد استخدامه لاكثر من بحر عروضي في القصيدة الواحدة ، استجابة لرغبته في الانتقال من قالب موسيقي الى اخر ، حتى يستوعب النفثات الجرسية المتنوعة التي يتطلبها البناء المعقد للتجربة الشعرية ... وفي محافظته الدائمة على وحدة التجربة ، وكبحه جماح الرغبة الملحاح في الانسياق

التلفائي خلف نداعي الخواطر الشعرية ، والذي يسقط بكثير من شعرانا المجيدين في هاوية الثرثرة والنثرية ، والشعر تركيز . ولا يعني هذا ان قصائد السياب كانت خالية من السقطات والهنات تماما .. فالذي يهمني هنا هو التركيز على الاضافات الحقيقية التي اثري بها السياب الشعر الحديث . فلست في معرض تقييم نقدي لانتاج السياب وحصاده الشعري ، ولكني هنا في معرض رثاء له وتاكيد على الجوانب الاكثر فعالية في شعره وايجابية .. وقد ركزت في السطور السابقة على انجازات السياب - في حقل الشعر - المنسمة بالعمومية، وعلى الاضافات التي اثري بها صرح الشعر الحديث الوليد ، وافامه عليها ، دون التعرض للطابع الخاص للسياب والمذاق المميز له ... لذلك لم احدث عن الحس الفلكلوري المنطلق في كثير من قصائده .. ولا عن محاولته الدائمة للاقترب من جوهر الرؤية الشعرية واحتضانه لها وخاصة في اثري مراحل انتاجه الشعري واخصبها ، اقصم مرحلته الالتزامية الاولى .. ولا عن احتفائه الخاص بالالفاظ والتراكيب القرآنية .. ولا عن بحوبه كثيرا بالقرب من البناء القرآني للصورة .. ولا عن براءته في تحقيق اللحام بين المأساة الذاتية والمأساة القومية من خلال البناء الاسطوري المحكم للقصيدة .. فكل هذه من سمات السياب الشديدة الخصوصية والمميزة له والمكونة لظمه الفريد .. والتي نستطيع ان نلمسها عبر مراحل التطورية المخلفة .. ولا سيما في المرحلة الالتزامية الاولى ، والتي تشمل اغلب قصائد اروع دواوينه (انشودة المطر) وهو ثالث ديوان للسياب .. وكان الثاني بعنوان (اساطير) لصيقا بالديوان الاول وان اطلت عبره تباشير الديوان الثالث الكبير .. في هذا الديوان - (انشودة المطر) - استطاع الشاعر ان ينزع عن كاهله تماما كل ظلال الفئانية الرومانسية التي توشجت بها كل قصائد (ازهار ذابلة) واغلب قصائد (اساطير) .. وان يحلق قريبا جدا من جوهر الشعر .. وان يفني عبر البناء الاسطوري المحكم ، كل الجزئيات المتناهية الصغر والتي تصوغ ببراعة ابعاد المأساة المرافية ..

عذارانا حزاني ذاهلات حول عشتار
يفيض الماء شيئا بعد شيء من معيها
وغصنا بعد غصن بذبل الكرمه
بطيء مونا المنسل بين النور والظلمه

فيقدم من خلال عذارى العراق المتخلفات في ذهول حول عشتار الذابله وسط صحراوات الجذب والجفاف والموت البطيء الزاحف على كل شيء ، مأساة العراق .. عراق فاضل الجمالي ونوري السعيد الرازحة تحت اقدام الحكم العميل ونحت وطاة المواضع الاجتماعية الجائرة .. التي بدفعه حدة تناقضاتها السافرة دونما خجل الى الصراخ ..

وفي العراق جوع
وينثر الفلال فيه موسم الحصاد
لتشبع القربان والجراد
وتظنح الشوان والحجر
رحى تدور في الحقول حولها بشر
مطر .. مطر .. مطر ..
وكل عام حين يعشب الثرى نجوع
ما مر عام والعراق ليس فيه جوع

.. احتجاج هذه الصور الطافحة بالاسى المتجللة بالاحزان العميقة والكثيفة الى ادنى تعليق ، بل هل باستطاعة اي تعليق ان ينقل شحنة الغضب الهائلة التي تنوتر بها جزئيات هذه الصور .. حيث نصيح الرحي هي المركز وحولها البشر الدائرون كثيران السوافي العماءة في فلك هذه الرحي الدائرة وسط انهماك المطر الاحتجاجي لتطمم القربان والجراد .. حيث يطل الجوع عملاقا برغم اخضرار الثرى وليس بسبب اجدايه .. الجوع الدائم المستمر المثل عبر كل حول .. ولم يكتب السياب هذه القصائد بعد انحسار الحكم العميل الذي ازدهرت معه المواضع الجائرة .. فالسياب لا يؤمن بضرب الجثث الميتة ولا

بمصارعة طواحين الهواء .. ولكنه كتبها والحكم العميل في اوج مجده
.. في اعوام ٥٤ ، ٥٥ ، ١٩٥٦ .. سريلها انا بالاسطورة ، ولفها انا
آخر برداء من النفني باغترابه وضياعه وسط عالم جائر مخمل ، ووسط
النخيل الجميل المنساب على شطآن جيكور يشرب المطر .. راسمها
للمفارقة ومعقفا لها ..

اعلمين اي حزن يبعث المطر

وكيف تتشج المزاريب اذا انهمر

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع

بلا انتهاء - كالدلم المراق ، كالجياع

كالحب ، كالاطفال ، كالوتى - هو المطر

فتركز السياب على جمال الطبيعة في هذه المرحلة ، نوع من تأكيد
هذا الجمال النقي ازاء القبح والجور ، وتعميق للاحاساس بشاعتها
في الان نفسه .. كما كان لتأكيد على المطر في تلك المرحلة الاف
الدلالات ..

ولفني الظلام في المساء

فامتصت الدماء

صحراء نومي تثبت الزهر

فانما الدماء

توائم المطر

فاقترن المطر في شهره بالدم وبالرعب وبالارق وبالدموع وبعذابات
الرحيل وبالحنين الى الاحباب .. وبالخوف من الوحدة والوحشة
والظلام .. واصبح المطر في الان نفسه بلسما ينكا الجراح .. وعلة
نتعلل بها حذر الخوف ..

وكم ذرفنا ليلة الرحيل من دموع

ثم اعتلنا - خوف ان نلام - بالمطر

مطر .. مطر .. مطر ..

وهو ايضا مرفا الافراح والضحكات .. وواهب الطبيعة ألقها
وبهائها وجمالها .. عدو الجذب وفرينه في آن .. وواهب الاطفال
البهجة والضحكات واغنيات للمطر الصغيرة .. هو هذا معا وهو ايضا
مفجر كل هذه الكنوز

ونرفع للسحاب عوننا : سيسيل بالقطر

وارعدت السماء قرن قاع النهر وارتعشت ذرى السعف

واشملهن ومض البرق ازرق ثم اخضر ثم تنطفئ

وفتحت السماء لفيثها المردار بابا بعد باب

عاد منه النهر يضحك وهو ممتلىء

تكلله الفقايع ، عاد اخضر ، عاد اسمر ، غص بالانغام والهلف

ونحت النخل حيث نطل تمطر كلما سعفه

تراقصت الفقايع وهي تفجر - انه الرطب

تسافط في يد العنقاء وهي تهز في لهفه

.. وظل السياب يركز على هذا الرمز الثري بالايحاءات ، حتى
نجح من كثرة الحاحه على الرمز الكامن في هذه الصورة الشعرية الثرية،
في ان يربط بين اسمه وبينه .. حتى اصبح المطر اذا ما ذكر في
الشعر ، يذكر معه السياب .. واذا ما ذكر في قصائد السياب يستدعي
الى اعماقنا الاف الرؤى والايحاءات .. يستدعي الجذب والدماء
والجوع والحزن والوحشة .. يستدعي تموز وعشتار واتيس ولعازر
وعشرات الرموز المرتبطة في اعماق الاساطير بالخصب والطاء والعذاب
في آن .

وكما غنى السياب قضايا بلاده في هذه المرحلة الالتزامية .. غنى

ايضا قضايا العالم العربي كلها .. ذلك العالم المثقل وفتها بالاف

القضايا والمشاكل .. الرازح تحت عشرات الضغوط .. الممزق بين

برائن المتناقضات المتعددة .. ذلك العالم الهائم بين يافا ووهران ..

التمزق على الجبال هنا وهناك ..

اله محمد واله ابائي من العرب

ترأى في جبال الريف يحمل راية الثوار

وفي يافا رآه القوم يبكي في بقايا دار
وابصرناه يهبط ارضنا يوما من السحب
جريحا كان في احيائنا يمشي ويسجدي
فلم نضمد له جرحا
ولا ضحى

له منا بغير الخبز والانعام من عبد

وانسان هذا العالم ممزق ايضا .. مدرك لوعورة المرفى الى

الجلجلة .. حيث تدمي الاتسواك الافدام ثم ينتظر الجسد الصلب

للخلاص .. قادر على تحمل اعباء اكاليل الشوك ووخزات الحمى ..

من اجل احياء لعازر الذي مات مذ امد طويل ودبت الديدان فوق

جثته .. انه سيزيف المدرك لفداحة المسؤولية والعذاب ولثقل الصخرة

.. فالصخرة هنا هي الآخرون .. هي المسؤولية عنهم .. مستغيبهم ..

ايقظهم من هذا السبات العميق الطويل ..

وعر هو المرفى الى الجلجلة

والصخر يا سيزيف ما اتقله

سيزيف ان الصخرة الآخرون

هذا مخاض الارض لا نياسي

بشارك يا اجدات حان النشور

بشارك في (وهران) اصداء صور

سيزيف القى عنه عبء الدهور

واستقبل الشمس على (الاطلسي)

لكل هذه القضايا العربية غنى السياب .. لبور سعيد ولوهران

.. ولكفاح الشعوب العربية من اجل استقلالها وحرينها .. وايضا

لغافلة الضياع المشوقة الى يوم العودة ...

لم يخرجونا من فرانا وحدهن ولا من المدن الرخيبة

لكنهم قد اخرجونا من صعيد الادمية

فاليوم تمتلىء الكهوف بنا ونعوي جائعين

ونموت فيها لا نخلف للصغار على الصخور

سوى هباب ما نقشنا فيه من اسد طعين

ونموت فيها لا نخلف بعدها حتى قبور

ماذا نخط على شواهدها ؟ ..

أ ... كانوا لاجئين »

لكل هذه القضايا كتب السياب قصائده .. واستطاع عبر هذه

القصائد ان يوظف الشعر وان يفجره بكل قضايا شعوبنا العادلة

والشريفة .. غير انه لم يتمكن من مواصلة رحلته مع الشعر الى الذرى

.. ولاسيباب كامة في اعماق قصائد هذه المرحلة ذاتها . ومع سقوطه

في المرض ، الذي اعقب بدايات الاجذاب الشعري ورافق تيقظ الاحساس

المرير بالافتراق والوحشة ، سقط في وهاد القرية وفقدان الرؤية ..

وبدا كتجسيم حي لشاعر كبير يصرخ في اعماق بشر مظلمة ويتخبط في

افبيتها الموحشة وسرايها النحاسية الرنين .. وجاء ديوانه الرابع

(المعبد الفريق) تسجيلا لحالة شاعر ينثر ابنهالانه في اروقة معبد فريق

بالفعل .. ويتأرجح بين السقوط الدامي والتشبث الضاري بالعالم

الرحب الفسيح الذي يتخفف على شطآنه من كل الهموم .. والشيء

الاساسي الذي انقذ هذا الديوان ، هو اخلاص الشاعر وصدقه في

تصوير حالة التأرجح الكثيبة تلك .. بعدما تيقن من ان الخواء يعيق

في كل الاجراء .. وعندما حاصر الاجذاب كل ابعاد عاله حتى اصبحت ..

المومس الاجيرة التحقيره

اكثر من حبيبتتي سخاءا

اينتها مساءا

معانقا ، اعانق الهواءا

هب من القطب على الظهيره

مقبلا عيونها الخواءا

وحتى استنحال هو ، وسط اقبية المعبد الفريق الموحشة وسرايها،

الى مجرد دون كيشوت فاقد لابعاد الرؤية الصحيحة .. تلعب الخيالات

بعقله الممسوس فيجهاز بسيفه الطائش على حصاد الخصب قبل اي شيء ..

كانني كيشوت في الاصيل
يركض خلف ظله الطويل
ويطعن السنابل الكسيره
يظنها الاعداء

... ثم جاء الديوان الخامس (منزل الاقنان) بكل ما فيه من ظلال صوفية ، ومن تشيت يانس مرير بالحياة ، ومن احساس متوهج حاد بافتراق نهاية الغريب الذي طالما غنى على الخليج للمطر .. ومن شبق عادم الى العراق والبيت والابن والاستقرار والراحة .. ومن ارتعاش داخلي حاد ازاء الضوء والالوان المبهجة المشرقة .. ليسجل عبر كل هذا به ، الانعطاف الجديد الذي اسفر عن وجهه الكامل في الديوان الاخير (شناسيل ابنة الجلبي) .. والذي استرجع فيه الشاعر من شرفة الفناء البصراوية ، صوته الاول ، وجزء من رؤيته للعراق ولأساته الذاتية في أن .. واستعاد عبره شففه الطفولي العذب بالنخيل والمطر المكنوز بالاسرار ، وعالم جيكور الحافل بالسراء والجمال ، والبؤس والعذاب معا ... وان اكتظ الديوان باغنيات الرض والعذاب .. وحلق في سماء اغلب قصائده احساس فاجع متشائم .. وتجلت فيه نعمة واضحة من البؤس والحمران والابن والشكوى .. وتشوف ظمء الى صوت الياف او حتى رسالة ..

اني اريدك ، اشتبهك ، امس تفرك في رساله
طال انتظاري وهي لا تأتي ، وتحترق الزوارق والتخوت
في صفة المشار تنفض ، وهي لاهثة ، ظلالة
عل الرياح حملن منك لها رساله
لم تيلخين علي بالورقات ، بالحبر القليل وسحبة القلم الصموت؟
اني اذوب هوى .. اموت
واحن منك الى رساله .

يل يتجاوز به هذا الحنين العارم كل حد . ويدركه الياس من صمم الاحياء المجسد لصمم العالم الكلي من حوله .. ويسهر الليل كله في انتظار الصوت الاليف ، ولكن الباب ما قرعته غير الريح في الليل العميق .. فيستجدي صوت الام المتوارية تحت الرغام .. يامل لو لم تمت ، لملأ صوتها عليه الحياة .. يصرخ ..

اماه .. ليتك لم تقيبي خلف سور من حجار
لا باب فيه لكي ادق ، ولا نوافذ في الجدار
كيف انطلقت على طريق لا يعود السائرون

منشورات « دار الاداب »

تطلب في القاهرة

من

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب

(سليمان باشا سابقا)

من ظلمة صفراء فيه كأنها غسق الجار ؟
كيف انطلقت بلا وداع فالصغار يولولون ،
يتراخسون على الطريق ويفزعون فيرجمون
ويسائلون الليل عنك ، وهم لعودك في انتظار ؟
الباب تقرعه الريح لعل روحا منك زار
هذا الغريب !! هو ابنك السهران يحرقه الحنين
اماه .. ليتك ترجمين

شبحا ، وكيف اخاف منه وما امحت رغم السنين
فسمات وجهك من خيالك ؟
اين انت ؟ اسمعين ؟
صرخات قلبي وهو يذبحة الحنين الى العراق ؟
الباب تقرعه الريح .. تهب من ابد الفراق
.. ولكن .. يا لمرارة الياس والوحشة والخواء وارتطام الريح
بالابواب دونما رحمة .. والقبوع مع الصمت وحيدا داخل الحجرات
الموصدة .. والتمدد على اسرة المستشفيات ليل نهار في ملل وكآبة ..
والآلام المرض والوحدة التي فيها ..
لم يبق صديق
ليزورك في الليل الكابي
والغرفة موصدة الباب
والتي يصرخ من الامها الموحشة الى الله ان يعيده الى الابن والاهل
والدار ..

اعدني يا اله الشرق والصحراء والنخل
الى ايامي الحلوه

الى داري ، الى غيلان الشمه ، الى اهلي !

فليس باستطاعة احد ان يتلمس مدى العذاب الذي يعيشه ،
بساقبه العاجزين عن حمله وبتمرغه اليومي في اسرة الدماء والمرض،
وبخيالاته المنطلقة الى اقصى الحدود ، لتعمق قدرتها على التجوال في
كل الفياقي والغفار والرؤى ، عجزه المرير حتى عن المشي لخطوات
قليلة .. ومغادرة هذه السرر الدموية المعبدة ..

اه لو تدرين ما معنى ثوائي في سرير من دم

ميت الساقين محموم الجبين

تأكل الظلماء عيناوي ويحسوها فمي

تأنها في واحة خلف جدار من سنين

وانين

مستنطار اللب بين الانجم .

وبرغم رهبة العذاب في كل هذه الاغنيات ووحشة الاسى .. فاننا
نلمس فيها تلك الشفافية الشعرية التي استعادها الشاعر من جديد
في هذا الديوان الاخير بعدما تاهت عنه في اقبية (المعبد الفريق)
العتمة وفي سراديب (منزل الاقنان) الصوفية الموجهة .. وكان باستطاعة
السياب ، بعدما استعاد في (شناسيل ابنة الجلبي) صوته الاول ،
مواصلة الرحلة نحو الدرى .. غير ان المرض الزاحف من القدمين ،
شللا كئيبا راعيا ، اتم رحلته نحو الدرى ، قبل ان يقطع السياب
الشوط الاهم في رحلة الشعر الطويلة المريرة .. الشوط الذي يتجلى
فيها الصفاء والنقاء وجوهر الشعر .

وكما اختطف الموت جون كيتس وبيرون وشيللي وبروك في ريعان
الشباب . انقض كالصقر الالهي ليختطف عنيميذا الرقيق الجميل
الروح ، عله يفني ترانيله الرائعة تلك في اولب الالهة ، بعدما اجحفه
عالم البشر ادنى حقوقه وابسطها .. انقض الصقر الالهي على شاعرنا
وهو يحث الخطى نحو عامه الاربعين .. اختطفه .. ولكنه ترك لنا
عطاء ثريا من الشعر والاقاصيص والترجمات والدراسات .. ينبغي
علينا ان نعود اليها في فسحة من الوقت ، لنأملها ، وندرسها ، ونمسح
الرغام عن كنوزها الوفيرة .

صبري حافظ

القاهرة